" إبعد تحلا"

يذكر من يُتابع مدوّناتي من بينكم أنني قد كتبت منذ زمن قصير مدونةً تطرّقت بها إلى الصّداقة والأصدقاء، حاولت من خلالها أن أُبيّن أهميّة الصّداقة والأصدقاء في حياتنا اليوميّة وبالغت حينها في تعرضي للموضوع لدرجة التصنّع في بعض الأحيان.

كلّما مرت الأيام أشعر أنّ قناعاتي في هذا المجال آخِذة بالتّصدّع واقتناعاتي آخِذة بالتّزعزع. لا لا لم يحدث أيّ شيء مهم دفعني إلى هذا الشعور، ولكن منذ فترة وأنا أسمع هذه العبارة: " البعد عن الناس غنيمة". أعترف أنني أحسست براحة نفسيّة عندما سمعتها. أعترف أنني أجد نفسي جالسًا لوحدي في بيتي أو في مكتبي، وممّا يخيفني في هذا الأمر أنني أشعر بالارتياح أكثر وأكثر حين أجد نفسي في هذا الوضع.

بدأت اقتنع أنّ كلمة "صُحبة" لا تُحكى إلا لإثنين أو ثلاثة أشخاص في حياتنا. هذه "الصُّحبة" تكون أيضًا في أوقات مُتباعدة وليس بشكل متواصل، فالجميع لديهم مشاغلهم ومتاعبهم، والتّواصل يتم عند الحاجة.

لقد توصلت إلى القناعة أنَّ تفاصيل حياتي لا حاجة لأحد أن يعرفها. لذلك أصبحت علاقاتي رسميّة وسطحيّة مع الغالبية. وخففت فضولي الزائد واندفاعي لمعرفة مشاكل الناس وقصصهم. شعرت بارتياح غريب عجيب. ارتياح لم اعهده من قبل. فعلاً صدق المثل القائل: " قلّل ناسك بيرتاح راسك".

قبل عدة أيام وجدت في صندوق الرّسائل عندي في الفيسبوك طلب صداقة من فتاة لا أعرفها. هذه الفتاة لم التقيها بحياتي وهي تسكن في مدينة بعيدة عني، يعني لا أمل أن التقي بها، فهي تعمل في مجال الصّحة وهو مجال بعيد عن مجال عملي بالتّربية والتّعليم. وجدت نفسي أرسل لها رسالة وحيدة يتيمة: "ليش؟". بعد فترة قصيرة رأيت ردًا لرسالتي تقول فيها: "مافهمت". شرحت لها واستفسرت عن السبب في طلب الصداقة الافتراضيّة. أحسّت الفتاة بالإهانة والامتعاض رغم أنها كانت مؤدبة حيث قالت: "براحتك". طبعًا قامت بإلغاء طلب الصّداقة. بالطبع لم أندم على ذلك فأنا أعرف أنّ أغلب أصدقاء الفيسبوك هم مجرد ديكور. هناك الكثير من الأشخاص الذين يجمعون أكبر عدد من الأصدقاء كهواية مثلما كنّا نقوم بالماضي بجمع الطوابع.

كلنا نُلاحظ أنّ علاقاتنا ببعضنا البعض آخذة بالتعقّد، كانت علاقاتنا بالماضي واضحة جدًا، سهلة بسيطة، فهذا جارٌ لنا وهذا صديق للعائلة وذاك خالٌ وعم وقريبٌ بعيد. اليوم نسينا هذه العلاقات التي أصبحت مجرد أسماء.

وها نحن نزداد حكمة وفطنة مع تقدمنا في السن، هذه الحكمة تقودنا أكثر وأكثر إلى الابتعاد عن الناس، فلا أحد مثالي أو كامل. كلّنا لدينا عيوب لكن بدرجات متفاوتة. أصبحنا نميّز بين الصّديق الحقيقي والصّديق المزيّف والصّديق المُؤقت.

هل تذكرون أنّ الصداقة باللغة العربيّة درجات؟ مثل الزّميل، والسّمير، والنّديم، والرّفيق.. وغيرها من الصّفات. اليوم أيضًا لدينا أسماء للصّديق في العصر الحديث

ومنها: الحقيقي، الأصيل، المزيف، المؤقت، المصلحجي، المنتفع.. وغيرها الكثير ممّا تستطيعون إضافته بأنفسكم.

أشعر بقدر كبير من الأسف، إذ أنني أتراجع عن كلامي السّابق وأنا استعرض صداقاتي السّابقة، وأتذكّر صداقاتي الحالية التي تتفاوت من شخص لآخر.

كثيرًا ما أتساءل: أين ذهبت صداقاتي السابقة؟ أصدقاء من نسمّيهم "أصدقاء الزّمن الجميل" أو أصدقاء الشباب أو أصدقاء الجامعة؟!

استعيدوا ذكرياتكم في الماضي البعيد وحاولوا أن تتذكّروا كمية "الأصدقاء" الذين قابلناهم في مراحل مختلفة من حياتنا. سيقول بعضكم أنّهم بالمئات وسيقول الآخرون أنّهم كانوا قلائل. ستعود بكم ذاكرتكم إلى جميع الأشخاص الذين أسعدوكم أو جرحوكم. كم من صديق قطعنا به علاقتنا بعد ان جرحنا؟ وكم من صديق أصبح غريباً وأصبحت علاقتنا به رسميَّة بعد أن كان أقرب المقرّبين؟ كم تمنينا له الخير وأن نراه ناجحًا وأن يكون سعيدًا، ولكن بشرط واحد أن يظلّ بعيدًا عنّا.

من الأمور التي كانت وما زالت راسخة في ذهني ان بعض الناس لا يكرهوننا لمساوئنا، بل يكرهوننا لحسناتنا. ومن هذا المنطلق يخفي البعض منّا أصدقاءهم وصداقاتهم خوفًا من الحسد. هذا على الاقل ما أخبرتني به زميلة لي أنها لا تحب أن يرى الناس أصدقاءها كي لا يحاولوا التّفريق بينهم. قد يرى البعض بهذا الأمر مبالغة ومغالاة غير اعتيادية. ولكن في الأمر بعض الرمزيّة، إذ أصبحنا نخاف على صداقتنا الحقيقيّة من الحسد لنُدرتها.

بالأمس مشيت في أحد شوارع المدينة سيرًا على الأقدام، وهذا قلّما نفعله في عصر السرعة، فجأة لفت نظري كشكًا حديديًّا صغيرًا لبيع تذاكر اليانصيب أو كما نسمّيه هُنا " اللوتو" وكانت الجائزة كبيرةً جدًا، 40 مليون شيكل. تأملت الرقم مطولاً، فأنا لست من المُغرمين بتعبئة اليانصيب، وأشعر أنّهم يبيعون النّاس أوهامًا وخاصّة الفقراء منهم وكبار السن الذين يأملون الفوز بالجائزة الكُبرى المستحيلة. بالتأكيد ان هؤلاء الأشخاص يفكّرون بالفوز ويسعون لمساعدة أولادهم وأفراد الأسرة ويبذلون قسطًا من المبالغ القليلة التي يملكونها جريًا وراء هذا الحلم.

للوهلة الأولى اغرتني فكرة الفوز بالجائزة الأولى وبالمبلغ الكبير ولكن ليس هذا المهم، المهم أنّ أفكاري تعدّت مرحلة التعبئة والمشاركة إلى مرحلة الفوز المؤكد بالجائزة، حيث ذهبت أفكاري إلى شراء جزيرة بعيدة اقضي فيها وقتي وحياتي بعيدًا عن حياة المدينة المكتظة إلى حياة هادئة ساكنه بعيدًا عن أصدقاء المنفعة والمصلحة.

أحسست أنني اميل فقط لصُحبة اولئك الذين يسمحون لي أن اكون أنا بكل ما أحمل من غرابة وتعقيد، من يمنحوني مساحات آمنة أكون فيها ذاتي بلا تكلّف أو مبالغة أو تزييف، منْ ينصحون برفق إنْ أخطأت دون أن يعتلوا منصة الحكم على افعالي.

فجأة شعرت بيد غريبة تلمس كتفي وتهزّني لتنقذني من أفكاري وأحلامي. نظرت خلفي فإذا بامرأة عجوز تقول لي: "دورك، بدك تعبي أو لا، ما عندنا وقت لنضيّعه".

وهل يجوز أن أترككم بهذه الحالة دون طرفة، لا وألف لا.

يُحكى أنّ رجلاً شكا من ألم في ظهره وأراد أن يرتاح في بيته، فجاء أهل القرية يزورونه. قال أحدهما: "سلامتك يا ابو أحمد، هذا وجع الظهر ثلثو خَتْيَره، وثلثينو قهر، بيكبر الزلمي وما بيحطها واطي، وحرمتو بتظل تحك عالجرح حتى ينزل الدم".

فقال رجل آخر: "لا، لا، وجع الظهر من خيانة الدهر، الكريم بيموت من وجع جيبتو، ممكن أبو أحمد محشور وكاتم علته".

ودخل آخر وتبرع بنصيحة وقال: هذه بلزمها مغطس بارد" وَجئ بمغطس ملئوه بماء بارد ووضعوا الرجل فيه لمدة ساعتين، وعندما أخرجوه تبيّن أنّ مفاصله تيبسّت، فأشارت إحدى العجائز أن يدهنوا جسد الرّجل بزيت حار، فدهنوه حتى تقزّز جلده.

وصار كلما قدّم قادم تبرّع بنصيحة: كاسات هوا على ظهره، لزقة خردل على بطنه، "كيّ" فوق خصره، شربة خروع، شربة دود، جراب حقنة وتحميلة دبس وما اشبه ذلك.

وكانت اللياقة تقضي أن تنفّذ جميع هذه الوصفات اكراماً لخواطر اصحابها.

ومع تكرار الوصفات تكرّرت النكبات: بقبق ظهر أبو احمد وقفقل بطنه وانحلّت مفاصلة، واصطكّت أضراسه وضاقت أنفاسه، فقلق عليه جُلّاسه واستدعوا شيخ القرية ليتداركه بنصيحة دينية قبل انتقاله إلى الرحمة الألهية.

وعندما حضر الشيخ اختلى بالرجل وقال له: "لابد ان تكون قد ارتكبت في زمانك خطايا مميتة، حتى ابتلاك الله بهذه العلل المقيتة".

قال أبو أحمد: " خطيئتي الوحيدة أنني سمعت نصائح الأصدقاء ونسيت نصيحة أمي قبل وفاتها: " إلّي ما بتعلم إلّا من كيسو بيموت قبل أوانو".

دامت صداقاتكم صداقة

أ.أيمن جبارة